سير الزمان

الوحدة العربية

لمناخباز

روسيا

على مفترق الطرق

الوحدة العربية

لحنا عبود

نشأت في السنين الاخيرة دعاية جدّية الى الوحدة العربية . وجعل دعاتها ينادون بها في الاندية وفي الصحف ، مستبشرين او مبشرين بتآلف الاقطار العربية وتفاهمها وتحالفها ووحدتها . وقد تجاوز بعضهم هذا الحد الى التصريح « بالامبراطورية العربية » كأس هو في حيز الامكان

وكان قد سبق تنفيخ باليوق هذي النغمة الجميلة المرحوم عبد الرحمن الكواكبي بكتابه الشهير « أم القرى » وذلك قبل نحو نصف قرن . وخفت ذلك الصوت بعدها ، الى ان تجدّد في آخر عهد الملك فيصل الاول ملك العراق . فارتفع صوت ذوي بالنداء بها على اثر عودته من لندن. والناس في تعليل ذلك مذاهب متباينة. والذي اعلمهُ ان الدكتور قدري بك سفير العراق في باريس ، وفارس بك الخوري رئيس مجلس النواب السوري ، ورستم حيدر بك ، وغيرهم من امثالهم ، يرون ان تلك الوحدة لابد من تحققها ، وانها ثمرة طبيعية لتحرر الامم العربية من السلطة الاجنبية . فان كل امة حرة هي واحدة في حكومتها ونظامها ، كايطاليا والمانيا وبريطانيا وفرنسا واليابان وروسيا وغيرها من امم الدنيا . وكل عربي صميم يودّ من كل قلبه ، حلول اليوم السعيد ، الذي به تكون الامة العربية متحدة متوحّدة منضوية تحت علم واحد . واذكر اني كنت احادث الاستاذ عبد العزيز الثعالبي ، الزعيم التونسي الكبير ، في امر الوحدة العربية . فقلت له ان حصول ذلك يقتضي الزمن الطويل . فاجابني فوراً ! « وما هو الزمان ؟ ليس الزمان الاّ انت وانا . فمتى اتفقنا على امر من الامور فقد حان وقتهُ » : وجّه هذا القول نظري الى ما للقوة الروحية من النفوذ في مصير الجماهير . على انهُ لم يعمني عما يعترض الوحدة العربية من العقبات . فهما تؤثر في نفوسنا محبة الوحدة لا يمكنها ان تخفف صعوبة ما يعترض تحقيقها من العقبات . ولا اراني ارمي الى تثبيط عزائم بني امي باشارتي اليها . انما هي نظرة علمية لا بد من العناية بها إزاء ما نسمع ونرى كل يوم من اعراض يقظتنا المباركة ، ورغبتنا في ادراك شأو الامم الراقية في مشارق الارض ومغاربها . وسأعالج الآن العقبات على ان افرد فصلاً خاصًّا للاساليب والوسائل التي يجب ان نتخذها لتذليل هذه العقبات في سبيل ذلك الهدف السامي

١ — الوضع الجغرافي وصعوبة المواصلات

لنظرة الى خريطة العالم العربي ، فانها تريك خالاً ان تلك الاقطار غريبة الوضع ، لا مثيل

لها في بلاد غير العربية من الامم . بلاد تمتد من الاوقيانوس الاطلنطي غرباً الى جبال كردستان شرقاً . ومن جبال طورس شمالاً الى بحر الهند جنوباً . وفي وادي النيل تمتد الاقطار العربية الى قلب افريقية . واكثر هذه الاصقاع صحار وبلاقع ، يمزُّ فيها الزرع والضرع ، بل هنالك ما هو اكثر من ذلك نكداً ، وهو انها تمزُّ فيها المواصلات . وتندر الخطوط الحديدية ، الاَّ ما كان من منشآت الاجانب . يستثنى من ذلك الخطوط الحديدية في مصر . على ان تلك الخطوط محلية لا تصل قطراً بقطر آخر من الاقطار العربية الاَّ ما يصل مصر بفلسطين اذا صحَّ القول بانهُ خط واحد . ثم ليس في كل الاقطار العربية نهر يصلح لمجر السفن فيهِ الاَّ النيل والدجلة والفرات . على ان المواصلات فيها محدودة وسفر الركاب قليل . انَّ تقارب الاقطار ، وسهولة المواصلات فيها وتوافرها من أول الشروط لامكان وحدتها . قابل الاقطار العربية بأي بلد آخر ، كاليابان او المانيا او فرنسا ، تجد البون الشاسع بين هذه وتلك . والاقطار العربية ليست منتشرة في قارتين فقط ، بل انها في القارة الواحدة بعيدة المدى صعبة المراس . مثلاً ، الاقطار العربية في افريقية تمتد من الاسكندرية الى قلب السودان نحو ثلاثة آلاف كيلومتر . ولكن امتدادها من بورسعيد الى الدار البيضاء في غربي مراكش هو اطول كثيراً مما ذكر . كذلك الاقطار العربية في آسيا فانها غير متآلفة ، ولا متدانية ، فبين الشام ، والعراق بينهما صحراء سورية ، ثم الجزيرة العربية بصحاريها ورمالها ، وجفاف بقاعها

ومن المعلوم ان الاقطار المتباعدة ، الصعبة المسالك ، القليلة المواصلات تنشىء في أقوامها تنافراً في المشارب وتبايناً في الاذواق . لان الانسان ابن الطبيعة . ولكل اقليم تأثير خاص في نفوس ساكنيهِ وفي أخلاقهم . فترسخ مزايا كل قطر في قومهِ على مدى الاجيال ، فتصير فيهم ملكات يتعذَّر نزعها او يتعسر . وهذا يحول دون تفاهمهم وتساندهم واتحادهم لجر المغانم ودفع المغارم ، فكيف يهون عليهم انشاء امبراطورية على ما بينهم من بعد الدار ، وتباين الآراء والميول ؟ فان الوحدة السياسية اذا لم تكن اختيارية ، واذا لم تكن ثمرة الثقافة الواحدة والصبغة الروحية الواحدة ، فاما أن تكون مستحيلة ، واما ان تكون ، اذا أمكنت ، بلاء على الناس ، كما كانت حال الاقطار الخاضعة للدولة العثمانية

لكل قطر من الاقطار العربية مزاياه الخاصة ، وعاداتهُ ، وتقاليده ، وميولهُ . ولدى محاولة جمع هذي الاقطار لتأليف ، وحدة او حلف بينها ، يبرز التباين بين مزاياها ، وتبدو صعوبة انضوائها تحت علم واحد . بل ان هنالك تُغَراً أوسع ، وأدواء أشنع ، حتى في أقسام القطر الواحد . مثلاً : بر الشام ، وهو اصغر الاقطار العربية ، وأقلها حظاً . ففي هذا القطر من تباين الآراء ، وتنافر الاذواق ، ما ليس لهُ مثيل في قطر من أقطار الدنيا . فالتباين الذي

بين الشمال والجنوب أمر تحققناه ، في مشاهد العلم التي ضمت أبناء البلاد ضمن جدرانها . وهنالك عناصر لا يهون امتزاجها بعضها ببعض . كالدروز والموارنة والنصيرية وأعراب البادية . وعلاوة على ما ذكر هنالك « اليهود » وهم ساميون نظيرنا ، ومع ذلك ، فان بينهم وبيننا ما صنع الحداد. وقد ضاعت حكمة اساطين السياسة في أوربا وأميركا أمام المشكلة اليهودية في فلسطين

وارجو القارىء العزيز أن لا يذهب عن فكره ان في القطر السوري من الادمغة والهمم النيرة ما يعزّ نظيره في أقطار هي أوسع مساحةً وأكثر سكاناً . تلك حقيقة لا مراء فيها ، تؤيدها شهادات أقطاب العالم المتمدن . ومع ذلك فأنت ترى ما فيها من الانشعاب وتنافر الاذواق ، وعدم التوافق . فاذا كان هذا هو الواقع في قطر واحد صغير ، فما ظنك في الاقطار المتباعدة كمصر وحضرموت او الجزائر والعراق ؟ فهذي أول عقبة في سبيل الوحدة العربية

٢ — الفقر

هو الداء العضال الذي لا ينفع فيه دواء ، ولا رقية ولا تعويذة ولا حيلة . الفقر أعضل الادواء البشرية واعصاها على فطس الاجتماع والسياسة . هذه الاقطار العربية ، على جودة اقاليمها — بعضها لا كلها — وموقعها الجغرافي الممتاز ، فانها صلة الوصل في العالم ، وبالرغم من ذكاء اقوامها وصفاء فطرتهم ، بالرغم من كل ذلك يحيق بها الفقر المدقع ، الفقر الاسود

وكيف يمكن ان تصان الوحدة والامة عاجزة عن الدفاع ؟ هذي هي بحارنا بحر العرب وخليج عمان ، والبحر الاحمر بخليجيه العقبة والسويس ، والبحر المتوسط ، وبوغاز جبل طارق ، وشرقي الاطلنطي . هذي هي البحار التي تصل الشطوط العربية ، فكم بارجة فيها لنا وكم نيافة وكم طراد ؟ لنفترض جدلاً ان الوحدة العربية ، التي نحبها ونحلم بها ، قد حصلت فاذا في طوقنا للدفاع عن الشطوط ؟ وهب ان الحكومة حاولت ان تعقد قرضاً داخليًّا فكم مليون جنيه يمكنها ان تقترض ، وماذا عساها أن تفعل بتلك المبالغ ؟ . اذكر ولا انسى يوم اعلن الدستور العثماني سنة ١٩٠٨ ، وهبَّت الامة لتولي الدفاع عن نفسها . فأذاعت جمعية الاتحاد والترقي ، وهي يوم ذاك حكومة ضمن حكومة ، اذاعت هذي الجمعية نداء في عرض البلاد بضرورة التبرع لانشاء اسطول عثماني يتولى أمر الدفاع عن شطوط الممالك المحروسة . وتبارى رجالها في كل بلد في هذا المضمار . فكانوا يدعون الاعيان والاغنياء ، ويستنهضون هممهم لخدمة الوطن ، « قرّرنا انشاء اسطول عثماني ، فهاتوا أورنا غيرتكم » . فكم جمعت الممالك المحروسة بعد بذل الجهود الخارقة ؟ الذي أذكره انها جمعت نحو نصف مليون جنيه . فماذا عساها أن تنشيء بهذا المبلغ، والبارجة من الطراز الاول تكلف ثمانية ملايين جنيه؟وكم سفينة حربية يلزمنا لحماية شطوط الامبراطورية العربية التي نحلم بها ؟ . وكم مليون يلزمنا لانشاء جميع تلك البوارج

والطرادات وغيرها من السفن الحربية ، لا للغزو ، بل للدفاع ؟

وإذا عجزنا عن ذلك فأي مستند نستند في انشاء امبراطورية اوسع من كل دولة في الارض واطولها شطوطاً ؟ وما قلتهُ في الاسطول يقال في الجيش البري . فيلزمهُ من الاموال مالا يستهان به . واليك شاهداً محسوساً « مصر » اليوم . فانها بناء على المعاهدة الحديثة بينها وبين انكلترا صار يحق لها ، بل يجب عليها ، زيادة الجيش للدفاع عن بيضة الملك . واجتمع الوزراء مراراً وتبادلوا الافكار ، وحسموا اقوال الخبراء ، وانتهوا الى نتيجة مضبوطة وهي : أن انشاء جيش مؤلف من عشرة آلاف يكلف الدولة عشرين مليون جنيه او اكثر . وان مصر ، مع ما يستدعي موقفها الحاضر لا تكاد تقدر ان تجند في العام القادم ثلاثة آلاف . فكم يلزمها لتهيئة نصف مليون ؟ . ولو أنها تولت الدفاع وحدها لما كفاها نصف مليون . ويلزمنا للدفاع عن الامبراطورية العربية اكثر من ذلك كثيراً ، فأين الاموال ؟ ان فقر العالم العربي يشلّ يده عن انشاء الوحدة لانهُ يرى نفسهُ عاجزاً عن الدفاع . اللهمَّ الاّ أن تكون وحدة زائفة خالية من مؤهلات الاعتبار والاحترام فتغدو لعبة في أيدي الاجانب

٣ — ضعف الزراعة والصناعة

الزراعة اول حجر في بناء الاجتماع البشري ، وهي استغلال الطبيعة ، ومنبع الثروة بالمعنى الصحيح . والصناعة هي الخطوة الثانية ، وهي ثمرة تصرُّف العقل بالمادة . والارتقاء الصناعي لصيق العلم وظاهرة المدنية . وقد جعل افلاطون الزراعة والصناعة ، في كتاب الجمهورية ، أس العمران ، وضامن الكيان . وعلى تبادل المنافع بين الافراد والجماهير تدور رحى المدنية والسياسة والارتقاء . وارتقاء الزراعة والصناعة في بلد أو أمّة عنوان الارتقاء . ولا يمكن ان ترقى أمة وزراعتها منحطة وصناعتها متقهقرة . فما هي أحوال هذين الركنين — الزراعة والصناعة — في العالم العربي ؟ . ليس ثمة من يجهل ان الاقطار العربية متأخرة في الامرين . وذلك أهم اسباب الفقر في بني قحطان ، لان الصناعة والزراعة ، وهما الثروة الاوّل

أجل ان القطر المصري ، وهو أسبق الاقطار العربية مدنيًّا ، فيهِ نهضة زراعية وصناعية أيضاً . وقد خطا في مساعي الري خطوة كبيرة الى الامام . وقد صحب ذلك نبوغ مهندسين وطنيين كبار عدا الخبراء والاختصاصيين الاجانب المستخدمين في مصلحة الري بوزارة الاشغال . فمصر بهذا الاعتبار جادَّة في أثر الامم الحية . وأرى ان العراق يسير في اثر مصر ويستند في نهضته اليها نوعاً . وذلك ظاهرة حياة في مصر والعراق ، ومقدمة ارتقاء في العالم العربي . أي اقدر ذلك قدره كؤرخ نزيه للنهضة العربية . على ان نزاهتي لا تأذن لي بالتمادي فالمغالاة . قلت أجهل ان نهضة مصر والشام والعراق محلية وابتدائية . فلم يبلغ قطر من هذي الاقطار

مصاف الامم الراقية في احد ركني الحضارة . فلا نزال ، نحن العرب ، في اول اشواط الارتقاء وينقصنا من الصناعات الشيء الكثير ، كصنائع بناء السفن ، والبوارج ، والقاطرات ، والقرام ، والسيارات والطيارات ، والدواصات ، والاسلحة ، والكوتشوك ، والآلات المتنوعة ، كآلات النسج وآلات عمل الجوارب ، وآلات التطريز والزركشة ، كذلك معامل صنع الخردوات ، كالمرايا والازرار والابر والدبابيس واقلام الرصاص ، والورق والحبر وأنواع البويا والاصباغ وغير ذلك من الصناعات التي لا بدَّ منها للاستقلال . هذا ما أقولهُ في أرقى الاقطار العربية ، فاذا ترى في الجزيرة العربية والسودان وبعض اقطار المغرب ؟ هل لها صناعة وزراعة تؤهلان ادماجها في عداد الامم الراقية ؟ لا أرى مطّلعاً عاقلاً يجهل ان الجواب ، مع الاسف ، سلبي .

كنت في اليابان أدهش لرؤيتي مبلغ القوم الزراعي ، وقد لمست في ذلك حقيقة النهضة اليابانية . وكذلك في صناعتها . فلما أشرفت على أوساكا سنة ١٩١٨ وفيها يومذاك سبعة آلاف معمل ، ورأيت مداخن المعامل في ظاهر المدينة ، ردحاً منها يكاد يحجب نور الشمس ضحًى ، عندها فهمت معنى النهضة الحديثة ، وتمثلت لبلدي العربي نهضة نظيرها . وقد تجلى هذا الاقتناع للخاص والعام في السنين الاخيرة لما غمرت المنسوجات اليابانية أسواق العالم . ورأى ابناء الين والضاد المنسوجات الحريرية اليابانية ، والحدايد اليابانية ، هذا عدا الخردوات والبهارج اليابانية ، وعدا الراديو وغيره من مصنوعات اليابان . وما أقولهُ في اليابان اقول اكثر منهُ في الولايات المتحدة الاميركية ، وفي فرنسا وانكلترا والمانيا وايطاليا . ولا أجهل ، ولا أنكر اننا مسبوقون في ذلك ، ومسبوقون كثيراً

وربَّ قائل يعارضني : ما علاقة تقدم الزراعة والصناعة بالوحدة العربية ؟ : اجيب هنالك كل العلاقة . فالتقدُّم الزراعي والصناعي شرط لازم لامكان الوحدة . فقد يكون ارتقاء صناعي وزراعي دون حصول الوحدة . ولكن الوحدة لا تكون بدونهما . لان الوحدة ظاهرة حياة شعبية . والارتقاء الزراعي والصناعي اول ظاهرات الحياة . فلا يمكن حصول الوحدة خلوًّا منها . ثم ان الزراعة والصناعة أدوات الوحدة تستعين بها على غلبة الصعوبات وتسهيل الامر . ولا يمكن امة في امم الارض ان تدرك وحدتها دون تقدُّم حقيقي زراعةً وصناعةً . بل انها اذا كانت موحدة وتأخرت في الزراعة والصناعة ضعفت اواصر وحدتها وانهار ركن اجتماعها ، فتشعب وتتفرق ايدي سبا ، شاهدك المحسوس في ذلك الصين . فقد كانت الصين امة واحدة ولكن تأخرها صناعةً وزراعة انتهى بتفكك اوصالها ، وتمزيق وحدتها . وليس غزو اليابان اياها علة ذلك الانشعاب بل نتيجته ، كما ان غزو الترك الاقطار العربية ، وقضاء الاسبانيين على ممالك الاندلس العربية ، لم يكن علة الانشعاب في الجسم العربي بل نتيجته . فالانشعاب اولاً والاستيلاء ثانياً . واري — وكلامي هنا سابق وقته — ان كل جهد في تحسين الزراعة والصناعة

هو خطوة الى الامام في بناء الوحدة العربية

يتبع ذلك ، او ينشأ عنهُ « تبادل المنافع » بين الاقطار العربية . وتبادل المنافع هو الرابط الاجتماعي العظيم . وتتم الوحدة العربية والكونية حين يكمل نظام تبادل المنتوجات على الوجه الاتم . وليس الخلل والشقاء في مسالك الامم والدول ، في عصرنا وفي كل عصر، الا ظاهرة ، او نتيجة عدم الانصاف في تبادل المنافع . فتبادل المنتجات ، في صورته الكاملة هو محل حياة ومحط اشراق تلك الحياة . ترى ذلك في الجسم العضوي كالانسان مثلاً فان نظامه الفسيولوجي صورة مصغرة لبناء الدولة والوحدة الشعبية فما دام الجسم سليماً من الآفات ، والحياة آمنة في عرشها والصحة مالكة زمام الاعضاء ، كان التعاون وتبادل الانتاج بين الاعضاء ، على اتمه . فيقوم كل من القلب والرئتين والمعدة والكبد والكليتين والدماغ بوظيفته الخاصة وبعد الاعضاء الاخرى عما يلزمها . فاذا اعتلّت الاعضاء اختلّت علاقاتها ، وانصرمت المواصلات ، وتعطل التبادل ، فبدت على الجسم اعراض الموت . هذا هو حال امم اوربا واسيا واميركا ، وهو حال المجموعات الفلكية ، وحال الوجود في ما اعتقد . فما هي المنتجات التي تتبادلها الاقطار العربية ؟ ارجع الى لائحة الصادر والوارد في مصر وسورية والعراق واليمن ونجوها من سائر الاقطار العربية . ويدخل في ذلك الاصطياف والمشتى والسياحة ، وكل انواع التواصل والتعاون الاجتماعي

وخلاصة ما اقول في هذا الفرع هو ان تأخر الزراعة والصناعة والانتاج ، وقلة التبادل في المنتوجات ، عقبة في سبيل الوحدة العربية المرغوبة

٤ — اختلاف المقاييس

يدخل هذا البحث تحت الثاني في الحالة النفسية . لكني اخصه بالذكر هنا لما لهُ من شأن كلنا نعلم ما حدث في الحجاز بين المصريين والوهابيين في امر المحمل المصري وكيف اشتبك الفريقان في القتال . ولولا الملك عبد العزيز انفذ الموقف بحكمته لساءت العاقبة . على أنهُ مع ما ابدى الملك عبد العزيز من الحيطة والحكمة ، ومع انقاذه الموقف بلباقة وشهم يستحق عليهما قدر الناس اياه قدره ، مع ذلك انصرمت العلاقات بين القطرين الشقيقين نحو عشر سنين . ولماذا كان ذلك ؟ الفريقان عرب . والفريقان مسلمون . ولمصر في الحجاز اياد بيض . فانها تنفق هنالك كل سنة عشرات الالوف من الجنيهات . وليس ثمة قطر عربي أوفر سخاء في الحجاز من مصر . فلو أن هنالك امة محببة الى قلب آل نجد ، فتلك الامة هي الامة المصرية . فلماذا كان التجافي والتنابذ بينهم وبينها ؟

الامر واضح . انهُ « اختلاف المقاييس » . مصر تحب الموسيقى وتحسبها ظاهرة حياة عالية . والوهابيون ينكرون ذلك ويحسبونهُ ظاهرة خلاعة وجناية على الروح . المصري يرسل زوجه الى السينما ، وقد يصحب صغاره أيضاً ، والوهابي يرفض ذلك ويقاومه . المصري يرسل بناته

الى المدارس الوطنية والاجنبية للتخصص في العلوم والفنون . والوهابي يحسب ذلك عاراً . المصري يحلق عارضيه والوهابي يرخي لحيته . المصري يدخن وذلك ينكر التدخين . أقول ان اختلاف المقاييس هو كل السبب في نزاع الاخوين وتجافيهما . وهو اس التنابذ بين الشرق والغرب ، وبين الشيوعيين والدكتاتوريين ، وبين النفس والجسد ، وبين الارض والسماء . فكيف تتم الوحدة مع اختلاف المقاييس والقيم؟

هنا يدخل توحيد الثقافة ، والكلام فيها ليس من اختصاص هذي المقالة ، فاكتفي بالاشارة ان تفاوت الاقوام في المستوى الاجتماعي والفراني والمدني والعلمي يقيم في سبيل وحدتها اصعب العقبات . فاذا كان احد الفريقين يتكلم الانكليزية والفريق الآخر الروسية فلا تفاهم بينهما . واذا راما التفاهم لزمهما الترجمان او القاموس . هذا هو موقف امم هي على درجات متفاوتة في سلم الارتقاء . فلكي يمكننا توحيد الخطة يجب اما ان اصعد اليك او انك تنزل اليّ . ولما كان منهج الطبع الارتقاء ، كان نزولك اليّ غير مشروع ، فوجب ان ارقى اليك . وحتى كنا في مستوى واحد حينذاك ، ليس الاّ ، يمكننا ان نسير معاً جنباً الى جنب وكتفاً الى كتف

ان ما قلتهُ في امم الاقطار العربية يصح في العائلات ، وفي العلاقات الزوجية . فما دامت المقاييس في عين الزوجين متباينة لا يمكنهما ان يتنعما بسعادة الاتحاد . فالزوجان السعيدان هما اللذان عندهما مقاييس واحدة . فما يقدسهُ الزوج تقدسهُ الزوجة ، وهكذا . فاذا تباينت مقاييسهما حل بهما الشقاء

٥ — الميل الى الانشعاب

عرف هذا الميل في اليونانيين القدماء . فتعذر عليهم الانضمام تحت علم واحد . فكانوا تلك عديدة ، حتى في بعضها كانت كل مدينة مملكة . لذلك لما تكلم افلاطون في الجمهورية مثل عليها بالمدينة . لان المدينة في عرف اولئك المتشيعين هي الدولة . أما في تمدن اوربا الحديث فليس الامر كذلك ، بل نرى فيها كل امة تحت علم واحد ، فجميع الفرنسيين يخضعون لحكومة باريس ، وجميع الانكليز لحكومة لندن . وهكذا الالمان والروس والايطاليون وغيرهم . أما في العالم العربي فليس كذلك ، فلنا دول مستقلة متمايزة في امة واحدة . هذي اليمن . وتلي جانبها حضرموت ، ثم الحجاز ونجد ، تليها العراق فسورية فمصر . يأتي بعد كل ذلك المغرب باقسامه تونس والجزائر ومراكش ، ولا ننسى طرابلس والسودان . وقد بلغ من بعضهم الانعصام بذلك حداً حسب عنده السعي في الوحدة افتئاتاً وجناية !! والسبب في ذلك ميل الجنس العربي — كما كان في الجنس الاغريقي — الى الانشعاب

والانشعاب اسهل على الحياة الفطرية من الاتحاد . ففي الحياة المادية التقدم من الواحد الى المتحد . فالنبت اصله واحد ثم انشعب . والعائلة اصلها واحد ثم تمددت . هذا هو منهج الفطرة .

اما في الحياة الروحية فالتقدم هو من التعدد الى الواحد . الاصل في بني حواء فرادى . فاذا ارتقوا روحيًّا تقاربت افرادهم وتواصلت فتبادلت الحياة . ترى ذلك كلهُ في الجسم العضوي فاذ برحتهُ الحياة ، وتحكمت فيهِ نواميس المادة تبعثر وتشتت اجزاؤه حتى صار تراباً . اما اذا سادتهُ الحياة فان اجزاءه تترابط وتتساند ، فالاجناس التي ما زالت على الفطرة يعز عليها انشاء الوحدة ، وعليهِ تنقسم الامم في الطور الاول الى عشائر متباينة متمايزة . وفي جزر فيلبين لكل جزيرة لغة خاصة ، وهكذا في العشائر الافريقية ، فتعداد اللغات في ام اوربا هو كالحروب من موروثات القِدم ، والارتقاء آذن بتوحيد اللغة لا بتنوعها . فالامم الحربية أقرب الى الفطرة منها الى الارتقاء . ومع ان بعض اقطارها لامس المدنية وصعد في سلم الارتقاء ، ما زالت سنة الفطرة تسود احكامه . فمها يكبر الرضيع لا يزال يصبو الى اللهو . وترى في اكبر الشيوخ الميل الى اوصاف الطفولة كالمرح والبكاء والشهوة والنزاع . فانشاء الوحدة الحربية عمل تقدم ايجابي ينافيهِ الميل الحربي الى الانشعاب . فان البدوي لا يعرف الخضوع للنظام في دائرة واسعة . ولا يحترم انكار النفس في سبيل حقوق الغير . لذا كان الغزو عنده مشروعاً . ونحن الحضر اخوانه شركاؤه في تراث السلف « الصالح » . كنت اقرأ كتاب تاريخ اليمن للعلامة الشيخ عبد الواسع ابن يحيى الواسعي اليماني ، راغباً في الوقوف على شيء من شؤون اخواتنا في قلب الجزيرة يصح الاستشهاد بهِ في موضوعي والاستناد اليهِ . فاستوقف نظري تعداد العشائر في تهامة الى حدٍّ تضيع عنده الحافظة . وقد نقل ذكر العشائر المتمايزة اكثر من ٤ صفحات ، ولكل عشيرة مزاياها الخاصة ومقاييسها . يقيم ذلك صعوبة كأداء في سبيل الوحدة الحربية كنظام سياسي

كذلك كانت ايطاليا في بدء تاريخ رومة . وكانت عشائرها وحدات متمايزة يحارب بعضها بعضاً ، كما تفعل عشائر الاعراب اليوم . وبعد سقوط الامبراطورية الغربية في عهد شارلمان عادت ايطاليا الى الانشعاب . وانقسمت الى اقاليم عديدة . وفي بعضها الحكم لمدينة واحدة كالبندقية وفلورنسا وجنوى ونابلي وهكذا . وظل الانشعاب الى النصف الثاني من القرن التاسع عشر حيث نشأت الوحدة الايطالية بمساعي كافور وغاريبلدي ومازيني وغيرهم . وقد تقم بعضهم ، وأناسهم ، على دول الاستعمار لانها قسمت البلاد الى وحدات صغيرة يسهل ازدرادها . فاوجدوا ما يدعونهُ شرق الاردن فلسطين لبنان . سورية . سنجق الاسكندرونة . وهكذا . على اني لا انكر انهُ لولا الميل الحربي الى الانشعاب لاستحال حصول ذلك . وعندي على ذلك شواهد لا محل لايرادها هنا لضيق المقام

هذي بعض عثرات ذكرتها مختصراً ، وقد تجنبت فيها ايراد الشواهد . وعندي ان هذا البسط لا بد منهُ لوصف الخطة القويمة التي نختطها في سبيل التغلب على هذه العقبات ، والاتجاه الى تحقيق الوحدة . وهو موضوع مقالة على حدة ، ان شاء الله